

عبادة الله والنعمة

عرس السماء في حياتنا الزمنية، يبدأ بالتوبة والصوم والصلاة وعيش رضى الله وحبه السامي، لتكون عبادتنا لله الثالث الأقدس عبادة حقيقية.

أحبائي، يكشف حدث عرس قانا الجليل عن عمل الثالث الأقدس كإله واحد من خلال الأقسام الثاني، الرب يسوع المسيح. لكن قبل الولوج في سرّ الثالث الأقدس، ظهرت مريم العذراء، حواء الجديدة التي بطهارتها وطاعتها وتواضعها وانسحاقها أمام الحُبّ الإلهي جدّدت وجه الأرض، وكان موقفها يُناقض موقف حواء الأولى التي لم تعمل كما أمرها الله. ومن ثمّ، ظهر يسوع المسيح آدم الجديد الذي رمّم ما هدّمه آدم الأوّل، وظهر أيضًا عريس العهد الجديد كما أنّ الأب هو عريس العهد القديم. فيسوع هو العريس الذي فرح به تلاميذه وكلّ نفسٍ تنتظر سرّه الخلاصيّ، ولكن عندما صعد من بين تلاميذه إلى السماء، حينئذٍ تحمّ عليهم أن يصوموا (مت: 9: 14). أمّا أورشليم السماويّة، فهي عروس الله الأب، إذ هي مرضاته وسروره (أش: 62: 1-5)، بينما أورشليم الأرضيّة لم تفعل ما يُرضيه، لا بالصوم ولا بالصلاة. وهكذا، يكون عرس قانا عرس التجديد وبدء عهدٍ جديدٍ يعمل فيه أبناء الله على تصحيح علاقتهم بالخالق وعبادة الأب بالروح والحقّ. فمريم العذراء التي لاحظت النقص في خمرة العرس - وأرادت تعبئته بالمحبّة كي تستمرّ فرحة العرس، ولم تذهب خارجًا تُشهر بأهل العرس وتنتقدهم على هذا النقص - ونزولاً عند رغبتها، حقّق يسوع طلبها بالرغم من أنّ ساعة تحقيق رسالة الأب بقوة الروح القدس، أي ساعة افتدائه البشريّة، لم تحن بعد. لقد أمر يسوع الخدم بملء الأجران الفارغة ماءً، ففعلوا. عندها، نظر يسوع نظرةً بنويّةً إلى الأب السماويّ، ثمّ أرسل روحه القدس إلى الماء، فباركها وحولها إلى خمرة طيبة المذاق وذكيّة الرائحة.

أحبائي، بعد هذا المشهد الأوّل من إنجيل عرس قانا الجليل الذي يُظهر من ناحيةٍ زمنيّةٍ شخصيّتين بارزتين هما يسوع ومريم، ومن ناحيةٍ إلهيّةٍ عمل الثالث الأقدس، يأتي المشهد الثاني الذي له أيضًا ناحيةٍ زمنيّةٍ وناحيةٍ ثانيةٍ إلهيّةٍ. فالناحيةُ الزمنيّةُ تتمثّل بشخصيّتين بارزتين هما رئيس الولاية الذي اندهش بالخمير الجيدّ والعريس الذي لم يعرف كيف حصل ذلك. كذلك الناحيةُ الإلهيّةُ تتمثّل بهما، لأنّ رئيس الولاية يمثّل الأب السماويّ والعريس يمثّل الابن يسوع المسيح والخمر الجيدّ كان هبةً الروح القدس. أمّا هبة الخمر الجيدّ في الوقت الذي لم يعد يستطعم فيه المدعوون بمذاق الخمر، فهو يرمز إلى اللحظة التي حان فيها انسكاب حُبّ الله على شعبه كي يتذوّق طعم الحُبّ الإلهي ويتخلّى عن جهله وخطيئته وعبوديّته لشهوته. فالخمير الجيدّ هو رمز الحُبّ الطاهر الصافي السماويّ الذي انبثق من ماء الحياة، ليكون مصدرًا تطهيرًا للنفس وتحريرها من تسلّط الشرّير ومروق الشهوات وجاذبيّتها. لذلك، كان الأب السماويّ يُعلّم شعبه ويؤدّبهم ويربّيهم بالكلام الروحيّ والنبويّ الذي كان يسكبه على أنبيائه بالروح القدس لأجل الشعب. وكان كلامه كلامًا جيّدًا طيبًا يُسكّرُ أحبّاءه بحبّه وأطفه ورحمته، حتّى إذا ما امتلأ الشعبُ انتظارًا بالتقوى والبرارة والروح القدس، يرى مسيح الربّ وخلصه كسمعان الشيخ وحنّة النبيّة.

وهكذا، يُشرقُ مجدُّ الآبِ السماويِّ المُعدَّ لكلِّ الشعوب، بابنه يسوع المسيح، "نورًا يَنجَلِي للأُمم، ومجدًا" (لو2: 25-33) لشعبهِ المُنتظِرِ الخلاص.

أحبائي، لقد صامتِ البشريَّةُ عن رؤية مجدِّ الله في أقاليمه الثلاثة منذ سقطة آدم وحواء، إلا في بضعة محطّاتٍ لم تفهمها في حينه. ولكنّها بعد هذا الصوم الألفيِّ السنين، شاهدتهُ في شخص المسيح يسوع وفي سرِّه الخلاصيِّ، إثر بدء زمن المجيء الأوّل. وعندما كان عريسُ البشريَّةِ يسوع المسيح ما زال معنا على الأرضِ بشخصه كإلهٍ وإنسان، عاشتِ البشريَّةُ فترةً من مجدِّ السماء على الأرض وفي عرسٍ دائمٍ لم يَكُن يحلو الصوم فيه. أمّا وقد ارتفعَ وجلسَ عن يمين الله الآب، فالصومُ يحلو ويبدأُ تحضيراً وانتظاراً لمجيئه الثاني المجيد، حين يرفَعُ عنّا كُلياً تسلُّطَ الشرير ومروق الخطيئة وجاذبيّتها. لأنّه في زمن المجيء الثاني، نتحدُّ بالحبِّ الإلهيِّ من خلال سرِّ القربان المُقدَّس، أكثر ممّا هو الآن، أي لمّا تطهَّرَ الأرض من الفساد وتُصبحَ النفسُ البشريَّةُ طاهرةً بكلِّ كيائها، فتُصيرُ النفسُ قادرةً بطهارتها أن ترى فعلاً شخص يسوع المسيح في القربان المُقدَّس، بجسده ودمه ونفسه وألوهيته. وهكذا، تتقدّمُ النفسُ وتعبّده وتغذّي منه، فتنناولهُ في حال النعمةِ بخشوعٍ وإجلالٍ وإكرام ليس له من مثيل. تقول العذراء للكهنة في الكتاب الأزرق: "إنَّ يسوع الإفخارستيُّ يُصبحُ النموذجَ والشكلَ لقداستكم. يحمّلُكم إلى طهارة القلب، إلى التواضع المُختار والمرغوب، إلى الثقة المُعاشة، وإلى استسلام مُحبٍّ وبنويٍّ" الله (رسالة 360). "إنَّ ملكهُ المُمجّدُ سيظهرُ خاصّةً في انتصارهِ الإفخارستيِّ. لأنَّ الإفخارستيّا ستكونُ من جديدِ القلبِ والمركزِ لكلِّ حياة الكنيسة" (رسالة 176).

علينا أيُّها الإخوة أن نتحصَّرَ يومياً بصومِ الجسدِ والنفسِ عن ملذّاتِ المأكَلِ والمشربِ واللباسِ وعن خطيئة الفكر والقول والفعل والإهمال، فنُتوب مُعترفين بخطايانا لدى كاهن المسيح ونُوفي فروضَ التوبة ونُكفِّرَ عن خطايانا ونُختبر إِماتاتٍ من أجل خلاص النفوس من الهلاك. علينا أن نتحوَّلَ أبطالاً في صيام النفسِ والجسدِ على السواء، فلا نخافن من الصوم لأنّه يُجوهر النفسَ ويُطهِّرُ الجسدَ. لنقسو على ذواتنا، فالقسوةُ تصنع الأبطالَ لمجدِّ الله في أقاليمه الثلاثة. طريقُ السماء ضيقٌ، أمّا طريقُ الهلاكِ فرحٌ وواسع، فلنُختَر طريقَ الملكوتِ السماويِّ. مثلاً على ذلك، إنّ الطفلة جاسينتا التي كانت إحدى رؤاة ظهورات فاتيما-البرتغال، أعلمتها العذراءُ مريم بأنّها إلى جانب الأصوام والمرض والإماتات التي تعيشها، سوف تُنقلُ إلى ليشبونا-العاصمة وستُسلمُ الروح هناك وحيدةً دون وجود أيِّ أحدٍ من أحبائها أو أهلها أو أقرانها، وذلك لتُعزّي قلب الله وتُخلِّص النفوس من الهلاك. وسيُكلِّفها ذلك ألماً نفسياً كبيراً إلى جانب مرضها الجسديِّ. فأخبرت قريبتها الرائية لوسياً بذلك كما جرّت العادة، وراحت تُفكِّرُ بهذا الألم قبل حدوثة وتذرفُ دموعاً غزيرةً. فقالت لوسياً لجاسينتا: ولماذا تُفكّري بذلك الآن، اتركيه لوقته. فأجابت جاسينتا طفلة التسع سنوات: أفكّرُ بذلك الآن، لأنّني منذ الآن، فأعزّي قلبَ الله وأساهم في خلاص أكبر عددٍ ممكنٍ من النفوس من الهلاك الأبديِّ. وتكونُ جاسينتا بذلك قد ساهمت في تعزيز فرحة عرس السماء بالتائبين.

أحبائي، إذا كان لا يُوجد أكلٌ وشربٌ في ملكوت الله، فلماذا يكون هذا همُّنا الأوَّل والأساسيُّ فنُخدع به ولا نصوم؟ يقولُ مار بولس: "لا تُهلك بطعامك ذلك الذي مات المسيح من أجله!... فليس ملكوت الله أكلًا وشربًا، بل برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس. فمن يخدمُ المسيح هكذا فهو مرضيٌّ لدى الله (الآب) (روم 14: 15-18). وفي هذا الكلام، يدعونا مار بولس كي نعمل ما يليقُ بالثالوث الأقدس في هذه الحياة من أجل الحياة الأبدية. فالذي يريدُ أن يُرضي الله الآب عليه أن يخدمُ الله الابن يسوع المسيح، والذي يريدُ أن ينعَمَ بقداسة وفرح وسلام ملكوتِ الله الآب عليه أن يُسلِّمَ ذاته لعمل الروح القدس. هذا هو العرسُ الحقيقيُّ مع مريم البتول في سرِّ الزواج للمتزوجين وسرِّ التوبة للتائبين، والذي يقودُ إلى عرسِ ملكوت الله، أي إلى العبادة الحقيقية بالروح والحق للثالوث الأقدس.

أخيرًا، في بدء هذا الصوم المبارك، وبشفاعة مار يوحنا مارون في يوم عيدِه، وبشفاعة مريم البتول في ذكرى طلبها من يسوع ابنها أن يُظهر مجده، نرفعُ صلاتنا إلى الله الثالوث الأقدس، كي يقبلَ صومنا وصلواتنا، وبصنع معنا رحمةً لمجده إلى أبد الأبدين. آمين.